

القسم الثالث
ظهور الإسلام

العقيدة

كان الإسلام في مراحله الأولى عقيدة محدودة في الجزيرة العربية ، أما اليوم فإنه بوصفه قوة عالمية - قد صار عقيدة وثقافة توحدان بين شعوب أشد ما تكون تباينا ؛ والإسلام بوصفه شريعة ، هو همزة الوصل بين هاتين الناحيتين : أعنى بهما العقيدة والثقافة . ومن ثم يمكن أن نستخلص في إيجاز ثلاثة مظاهر للإسلام : — (١) العقيدة (ب) الانتشار (ج) الثقافة ولعل من الأوفق — إن لم يكن من الأدق — أن تطلق هذه الأسماء على أدوار ثلاثة في التطور التاريخي للإسلام .

ولم يكن مفر من أن يدور حول الأمور الثلاثة شيء من سوء الفهم الذى ألم بالآراء التى كونت عنها .

ولا يزال أتباع محمد (ص) يهتمون بالكثير من التهم الباطلة . ويمانون إلى اليوم مما أذاعه عنهم خصومهم في العصور الوسطى من تخرصات أساءت إلى سمعتهم ، كما أن أوروبا تنظر إليهم اليوم بالعين التى كانت تنظر بها إليهم أيام الحروب الصليبية . وقد بذلت في الحقبة الأخيرة جهود يقصدها استكشاف ماقد يكون متجمعا من الحقائق تحت مجموعة الروايات والمأثورات التى نجدها في المصادر المسيحية أو الإسلامية حول التاريخ المبكر لتلك الحركة الجديدة وأعنى بها الإسلام . والإسلام عقيدة جديدة ، وديانة عربية أصيلة . وذلك رأى صحيح . ولعمري إن الجزيرة العربية مهد العقيدة ومنبتها ، وإن العقيدة احتفظت ببعض تقاليد العرب وسننهم الاجتماعية. التى أثرت في بعض مناسكها .

ولم يكن الإسلام عقيدة جديدة فقط ، بل كان أيضاً تأكيداً لاستمرار الوحي لأهل الكتاب . فإن سلسلة الأنبياء لا تنقطع : وفيها إبراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وتعاليم الإسلام إن هي إلا تأكيد جديد ، وتعديل موحى به لأسمى ما تحتويه المسيحية واليهودية من عناصر . تلك العناصر التي غطت عليها المؤثرات الهلينية^(١) . وقد اعتقد كثير من المؤرخين أن الفتح الإسلامي مظهر لحرب صليبية أو دينية عامة يشنها مقاتلة متعصبون حالمون ، يشهرون السيف في يمينهم ويحملون القرآن في شمالهم ، وقد وطدوا العزم على إدخال الكفار كرهاً في دين الله وهو قول لا ينطبق إلا على موقف الإسلام حيال المشركين من أهل الجزيرة . إذ الواقع أن الإسلام فضلاء جيل عليه من تسامح شديد مع غير أبناء دينه لم يكن إلا حركة دينية عاصرت الحركة القومية ببلاد العرب^(٢) ، وكانت هذه حركة تقودها أرستقراطية من العسكريين شديدة الأخذ بالنزعة الواقعية ، وترى أن اعتناق الشعوب المقهورة للإسلام كرهاً ليس من حسن السياسة في شيء . أما الثقافة الإسلامية فلم تكن كما ظن كثير من الناس حضارة أسيوية شديدة المناقضة للحضارة الأوروبية . بل هي على العكس من ذلك بنت بيتها ، فهي إحدى ثمار تلك العناصر التي صيغ منها مجتمعة الأساس الذي قام عليه أيضاً الفكر المسيحي في عصوره المبكرة . وهو اتحاد

(١) وهنا نغير إلى آراء كتاب الصور الوسطى تلك الآراء التي ظل الإسلام يقاسى منها إلى اليوم والتي ظلت تحجب عيون أوربا عن رؤية الإسلام على حقيقته . وهم وإن لم يرموه بالوثنية فقد اعتبروه فرقة خارجة (كذا ! ؟ ! . . .) انظر مقارنات يوحنا الدهشقي في القرن الثامن . وانظر دانتى في السكوميديّة الإلهية (*Historie de Byzance*) (فاسيليف ج ' ص ٢٧٤) (*Seminator di scandaloedi scisoma*)

(٢) وسواء أجاز لنا تقبل نظرية كانياني التي تذهب إلى حدوث عملية متواصلة من الجفاف (*inaridimento*) في شبه الجزيرة العربية أم لم يجوز تقبلها فالواقع أنه لا يمكن إغفال أهمية العامل الاقتصادي بين أسباب الهجرة العربية .

الثقافين الهلنستية والسامية . ذلك الاتحاد الذى شمل الشرق الأدنى بأكمله .
وعندى أن هذا الأساس المشترك إنما هو إلى حد كبير ، السبب فيما أحرزه
الإسلام من أثر قوى على ثقافة أوروبا فى العصور الوسطى . ولاشك أن الخصومة
الدينية أفضت إلى إسدال ضباب الإبهام والغموض على المصدر المشترك لثقافة
الإسلام والمسيحية : وأعنى بذلك اشتراكهما فى التراث الذى وهبته للبشرية
فتوح الإسكندر . على أنه يمكن تتبع هذه المشاركة على امتداد التاريخ الإسلامى
بأجمعه ، على الرغم من تفوق العناصر الشرقية وازدياد بروزها ، نتيجة انتشار
الإسلام فى الأقاليم الشرقية ، وانتقال العاصمة من الشام إلى العراق . وسنبحث
الآن عن تفسير لهذه المفارقات الظاهرية .

بلاد العرب قبل ظهور محمد (ص)

إن الحركة المباغطة التى أطلقت على العالم فى القرن السابع الميلادى شعبا
عربيا فاتحا ، إنما هى من المفاجآت المثيرة فى التاريخ . إذ إن بلاد العرب من
البلاد التى لم تهبط طبيعتها لتكوين حكومة موحدة ، وهى حقيقة لم تفت
كلام من روما وفارس وتركيا وبريطانيا العظمى ، كل واحدة منها بدورها على
كر التاريخ . ومن المعلوم أن الشطر الأكبر من أراضيها صحارى ورمال ، يجوبها
البدر الرحل ، الذين تأصلت فيهم النزعة الفردية بحكم السليقة والتدريب ،
وهى نزعة لا تعترف بأية رابطة ولا تدين بأى ولاء إلا فى حدود القبيلة ،
أو حتى العائلة فى بعض الحالات . على أن العربى المتحضر النازل على الأطراف
الخصبة والذى ألف حياة المدن ، واشتغل بالتجارة أو الزراعة ، وكان له
اتصال دائم بالأمم المتحضرة ، والذى عمل وسيطا فى التجارة المتبادلة على
الطرق التجارية الكبرى بين الشرق والغرب — ذلك العربى كان تقيضا

لإخوانه البدو الرحل . ومع ذلك لا يكاد يحق لنا أن نتوقع العثور هنا على وجهة نظر قومية . هل أنه حدث في أقصى الجنوب العربى ، أن أفاد سكان اليمن من تجارة البحر الأحمر وبلغوا بفضلها قدراً من الوحدة ، كما تشهد بذلك آثارهم ونقوشهم — تحت حكم ملوك سبأ . ومع أن الغزو الحبشى قضى على أهميتهم السياسية قبل ذلك بقرن^(١) ، فإنه لم يستطع أن يغير الأحوال التى هيأت لليمنيين نصيباً ضخماً من التجارة مع الشرق الأقصى . أما فى الشمال ، فقد أدركت روما وفارس أن مصلحتهما تقضى عليهما بتشجيع قيام سلطة مستقرة بين القبائل المنجولة فى ربوع شرق الأردن والفيافى المترامية التى تمتد من فلسطين إلى نهر الفرات ، وهو نفس الشيء الذى فعلته الدول العظمى فى الأزمنة الحديثة . فقام ملك الفساسنة على أطراف الشام بمؤازرة روما ، على حين اتخذت فارس من مملكة الحيرة « دولة حاجزة » وهى الدولة الفتية التى تعتبر المركز التجارى على الفرات الأدنى . ومع ذلك ، فإن كلا من هاتين الدولتين التابعتين قد زالت من الوجود قبل ظهور الإسلام بزمان قصير . وإذا انتقلنا إلى الغرب ، وجدنا عرب الحجاز يعيشون عيش الاستقرار وإن لم يتحدوا سياسياً . وقد مارسوا الزراعة بالجزء الشمالى من البلاد ، إذ إن يثرب التى عرفت فيما بعد باسم المدينة ازدهرت بها حرفة غرس النخيل ، وأقام بها عدد ضخم من السكان يتألف من زراع من اليهود والعرب . وعلى مبعدة مائتى ميل جنوباً على طريق القوافل الرئيسى الذى يسير على امتداد ساحل البحر الأحمر كانت تقع مدينة مكة ، التى كانت تدين برخائها كله للتجارة . وكان تجارها يزودون أسواق سورية والمغرب بالبخور وخشب العطور الواردة من جنوب بلاد العرب ، فضلاً عما يرد من سلع الهند وأقصى آسيا ، التى حالت الهداوة

(١) انظر ص ٢٠١ بعنوان البعثات البشرية والديبلوماسية .

بين روما وفارس دون اجتيازها طريق الفرات القصير . وكانت مكة أيضاً مثابة دينية تقوم بها « السكبة » وحجرها الأسود الحافل بالأسرار وهي البيت العتيق الذى يجتذب الحجاج من كل أرجاء العالم .

ولم تكن الديانة في بلاد العرب بأوفر من السياحة حظاً من التنظيم ، وكانت عناصرها الأساسية المقدسة هي المزارات والأضرحة المحلية والأعمدة والحظائر المسورة المقدسة والشعائر الموروثة وعدد كثير من الأرباب البدائية الغامضة . وقد أدخلت المجتمعات اليهودية والمسيحية النازلة بالمناطق الساحلية عقائدها . على أن عقائدها هذه كثيراً ما كانت في صورة منحطة أو مبتدعة . غير أن الغالبية العظمى من السكان ظلت متمسكة بمقائدها العتيقة ، التي لم تتجاوز في معظم الحالات ما كان معروفاً من قديم الزمن في كريت وفلسطين من عبادة الأحجار النيزكية . ولاشك أن مثل هذه العبادات لم تعش نتيجة لشعور ديني أصيل بل عن استمرار التقاليد والعادات . ولم يحاول أحد من العرب البحث في اللاهوت ، وإن كان يبدو أنه قد ظهرت حركة تتجه نحو التوحيد . ولعل مكة هي أهم مثابة دينية عند القبائل ، وتحيط بها منطقة حرام مقدسة . وزاد في مكانتها وأسهم في رخائها التجارى منسك الحج واحتفالاته التي تقام بها كل عام .

حياة محمد عليه الصلاة والسلام ،

ولد محمد بمكة حوالى عام ٥٧٠ م . وكان ينتمى إلى المجتمع التجارى النازل بها ، ويبدو أنه أدرك عند سن الثلاثين درجة معقولة من الفنى . والوصول إلى بيان مقنع عن خلقه من المصادر التي بين أيدينا ليس بالأمر المسير . وإن جرت العادة عند الشعوب القديمة أن تكون لنفسها صورة عامة للنبوة . والنبوة

— كما هو معلوم — طراز مألوف في الشرق — وليس مختصاً بفرد بذاته —
وفي أثناء « الفترة المسكية » من حياته ، وهي المدة التي كانت دعوته الناس
خلالها سرّاً ، تجمع حوله فئة قليلة من المريدين المخلصين . ولم يكن بد من أن
تستثير الموضوعات الأساسية التي دعا إليها ، معارضة قوية من الماديين
المحافظين ، الذين تأصل لديهم العرف القديم والأخلاق القبلية . ولم يقابل مذهبه
في وحدانية الله بأى تحد ولا معارضة ، ولكن إنكاره لقيمة الآلهة المحليين
كشعفاء ، وتشديده القوى على ضرورة أداء الزكاة والرحمة بالضعفاء ، وأكثر
من كل ذلك تأكيده اقتراب يوم القيامة — تلك المبادئ التي ظل محمد يدعو إليها
بحماسة بالغة مستنداً إلى الوحي ، كل ذلك لم يكن بد من أن يثير مخاوف وشكوك
ذوى المكانة من رجال المجتمع القرشي وأن يعتبروها آراء هدامة . فلا عجب أن
قوبلت دعوته العاصفة وفكره النائر على مقدساتهم ، بنقد وزرارة من سادة المجتمع
هؤلاء ، وهبط عليه الوحي يبررها بالأساليب الجدلية ، أما مبادؤه فقد عززت
بالأمثلة والأقيسة المطابقة بصفة رئيسية لما ورد في الكتب التي يؤمن بها أهل
الكتاب من قبله . ولم يعد عليه هذا الاستدلال المنطقي إلا بزيادة عمق الهوة
التي تفصله عما كان يعبد قومه ، ومن ثم أخذ الوحي يزاد تنديداً بشرك
مكة وعبادتها للأوثان ، على أن حكمة الله اقتضت فيما بعد أن يميز النبي بعض
شعائر الكعبة ويتخذ منها ركناً جوهرياً في الدين الجديد .

وكانت سنة (٦٢٢) نقطة التحول في سيرة النبي (ص) . وهي السنة التي
تمت فيها الهجرة ، حين غادر محمد (ص) مسقط رأسه مكة واتجه إلى المدينة
وكانت بيئتها أكثر ملاءمة للتعاليم الجديدة . وكان كلما زاد أتباعه عدداً
اشتدت الحاجة إلى القوانين والتنظيمات . ومن ثم كثر نزول آيات التشريع
في أثناء الفترة المدنية من رسالته . هذا وإن الأهمية السياسية الجديدة التي بلغها
محمد (ص) لتنعكس فيما نزل من الآيات العديدة التي تحوى الحدود وتمثل

القانون المدني والجنائي ، فضلا عن عدد من الشعائر والسنن الدينية . ولم يلبث محمد (ص) على الرغم مما لقي من السكان اليهود من معارضة ، أن بسط سيطرة الإسلام على مجتمع المدينة ، وأن جمع حوله مجموعة ضخمة من المؤمنين ، الذين أسلموا أنفسهم لله ورسوله على نحو ماتدل عليه كلمة « إسلام » . وكانت خطوة هامة تلك التي عول بها محمد (ص) على اعتراض سبيل قوافل مكة بوصف ذلك ضربا من الانتقام الإلهي من الكفار الذين آذوا أتباعه وشرذوم من ديارهم . والحق أنه لم ينهيا شيء أشد إقناعاً للعرب بصدق دعوة محمد (ص) ، من النجاح الذي أصابته غزواته بتباعا . وعقد المكيون وغيرهم ممن أضرت بهم هذه الغزوات ائتلافاً قوياً لمهاجمة المدينة ، بيد أن ذلك الائتلاف لم يفز بطائل ، ومن ثم أصبح السبيل ممهداً لعودة النبي ظافراً إلى مكة (٦٣٠) . وعندما توفي محمد (ص) في (٦٣٢) كان الحجاز كله يدين بالطاعة لسلطانته السياسي والديني كأن الاحترام الذي كانت تلقاه جيوشه بكل أصقاع الجزيرة أكبر شاهد على أن قوة جامعة ومركزية جديدة قد نشأت ببلاد العرب . وبذلك لقي ما قام به النبي من الأعمال الجزاء الأوفى من الله تبريراً وتزكية .

العقيدة

من الجلي أن أساس الإسلام كان دينياً محضاً . إذ إن الحاجة الماسة إلى ضم من حوله من الناس إلى عقيدته ، هي الحافز الذي دفع مؤسس تلك العقيدة إلى العمل على اكتساب أتباعه الأولين . على أن العناصر السياسية لم تظهر إلا بعد الهجرة إلى المدينة .

فند تلك اللحظة أضحت انتشار الإسلام مرتبطاً بسيادة المدينة وسلطانها . على أن الجميع كانوا مسلمين طالما اقتصر نمو الإسلام على بلاد العرب . ولكن

عندما انتشرت قولات العرب في أرجاء الشرق الأدنى وشمال أفريقية ، وهي مهاد الحضارات القديمة ، صار الوضع مختلفاً ، وإذا بالعرب المسلمين يقيمون «دولة» . ولكنها دولة تتصف بالتسامح المطلق . وبدلاً من أن ينشر الفاتحون معتقداتهم بحمد السيف ، تركوا رعاياهم أحراراً في ممارسة عقائدهم على شريطة الاعتراف بسيادة العرب والالتزام بأداء الجزية المفروضة . فاحتفظ العرب بما للبلدان المغزوة من نظم إدارية وتجارية وقامت البواعث الاقتصادية بدورها . وبهذه الوسيلة تحققت المساواة الاجتماعية بين الغالب والمغلوب ، كما أن العناصر المشتركة بين المسيحية والإسلام ، ذلت العقبات التي تحول دون اعتناق الإسلام - غير أن عملية اعتناق الإسلام لم تتم إلا رويداً رويداً . ومن ثم فإن الفتح السياسي الذي أنجزته الجيوش العربية سبق طبع ذلك الشرق بالطابع الإسلامي بمدة مائتي سنة أو ثلاثمائة .

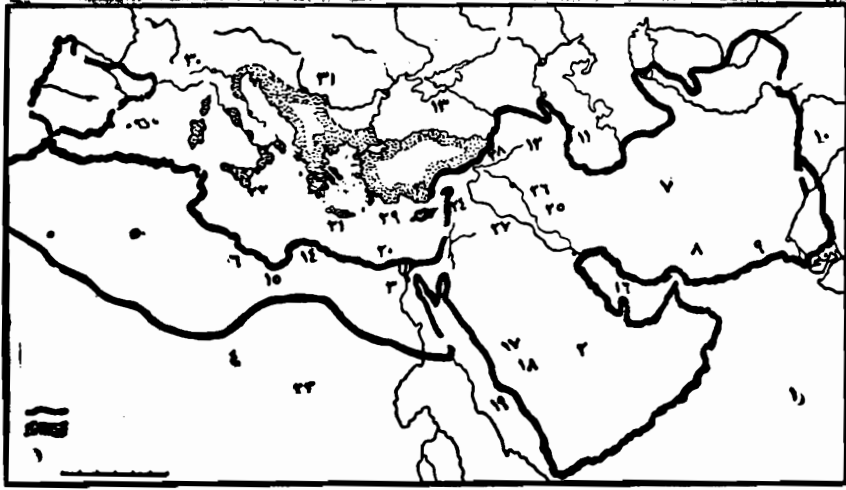
الباب التاسع

الفتوح الإسلامية

كان للدين الإسلامي — كما رأينا — الفضل في تنظيم المدينة . وأدى ذلك التنظيم إلى جمع كلمة العرب ودفهم إلى الفتح العسكري : ونبئت عن هذا المجتمع دولة . ولاشك أننا نلص مفتاح هذه الحركة في صفات الخلفاء الراشدين . فقد أعقبت وفاة محمد (ص) ثورة عامة ببلاد العرب على سيطرة المدينة ، وكأنما قدر للإسلام أن يخر صريعاً في تلك اللحظة إزاء ما تعرض له من حركة جارفة من الشعور القبلي والنزعات الفردية . ولم ينقذ الموقف إلا القواد المسلمون الذين اشتهروا بالقوة والشدة فقادوا جيوش المدينة لقتال القبائل التي تسكن وسط شبه الجزيرة العربية . والواقع أن هؤلاء القادة — هم وحدهم دون المتأملين الذين ملأ الإسلام قلوبهم — هم الذين قادوا حركة قم المرتدين . فاستطاعوا بما شنوه من حملات سريعة بسط سيادة الإسلام ثانية على الجزيرة العربية ، وتمكنوا من جمع شتات العناصر المتحاربة كلها في حلف واحد ، وبذلك أعدوها للقيام بأعمال الفتح . ولكن قبل أن يتم إخضاع بلاد العرب ، بدأت الغارات الأولى على الشام والعراق ، التي كانت تشنها جيوش قليلة العدد ، ليس لديها إلا فكرة ضئيلة عن الفتح الثابت المنظم ، واجتاحت كل شيء أمامها ، كما أن ما أحرزته تلك الجيوش من انتصارات جارفة في اليرموك والقادسية^(١) قد أتاح لذلك الحلف الحديث النشأة من التماسك ما جنبه التمزق وتفرق الكلمة بإفناذه جموع حشوده على البلاد المجاورة . ذلك أن الوقت قد نهياً فعلاً لتلك الغزوات . إذ إن أقرب منفذ لتلك القوات

المهادرة هو الأرض الواقعة شمال الجزيرة العربية مباشرة بين إمبراطوريتي روما و فارس .

ولم تكن الإمبراطوريتان في مركز يؤهلها للقيام بمقاومة منظمة . إذ تلت انتصارات هرقل فترة تفتت فيها الفوضى بدولة الساسانيين ، حتى إذا عاد النظام في آخر الأمر إلى نصابه ، كانت عودته بعد فوات الأوان . على أن مركز دولة الروم (بيزنطة) التي كانت في ظاهرها عظمية القوة والازدهار ، يحتاج منا إلى شيء من التوضيح : ذلك أن ما أحرزته من انتصارات لم يقتصر على تحويل فارس إلى دولة ذليلة لا قدرة لها على القتال وحسب ، بل إن تلك الانتصارات استنفدت موارد الروم بشدة أدت إلى ضياع كل ما استردته حديثاً بمصر والشام من الأراضي في مدى سنوات ثمان . ومن أهم الأسباب التي أفضت إلى تحويل كفة الحظ عنها ، ما أصاب قوتها العسكرية من الانهيار . إذ إن الحملات التي استمرت طويلاً أفسدت نظام جندها . كما أن هرقل الإمبراطور الشيخ الذي انصرف إلى الحصومات الدينية ، لم يعد كعهده قديماً نافذ الكلمة فيهم . وكان الجيش يتألف من عدة أخلاط من الجنود . فانخرطت فيه أعداد خفيفة من الأرمن وسكان جبال القوقاز ، وأسهمت هذه العناصر الشاذة في بث الفوضى بين صفوف الجيش ، على حين لم يكن قادتهم الذين ينتمى معظمهم إلى النبلاء الإقطاعيين ببلاذم ، أقل منهم تمرداً . وقد أدت هذه العيوب إلى إنزال أفدح الأضرار بالقيمة العسكرية لهذين الجيشين المرابطين بالشام ، على حين زادت الأحوال بمصر سوءاً . فإن الدفاع نيط هنا بجند من المليشيا من ملاك الأرض ، وهم قوم لا خبرة لهم في شئون الحرب ، على حين كان يشترك في القيادة خمسة قواد أنداد ، وهو وضع من اليسير تصور ما ينجم عنه من عواقب . وفضلاً عن خطورة الموقف العسكري ، كان هناك خطر



(٩) خريطة العالم الإسلامى

- | | | |
|------------------------------|-----------------|-----------------|
| ١ - المحيط الهندى | ٢ - بلاد العرب | ٣ - مصر |
| ٤ - الصحراء | ٥ - البربر | ٦ - أفريقيا |
| ٧ - فارس | ٨ - كرمان | ٩ - مكران |
| ١٠ - هندوستان | ١١ - بحر قزوين | ١٢ - تفليس |
| ١٣ - البحر الاسود | ١٤ - برقة | ١٥ - طرابلس |
| ١٦ - الخليج العربى (الفارسى) | ١٧ - الحجاز | ١٨ - مكة |
| ١٩ - البحر الاحمر | ٢٠ - الإسكندرية | ٢١ - كريت |
| ٢٢ - صقلية | ٢٣ - القاهرة | ٢٤ - أنطاكية |
| ٢٥ - العراق | ٢٦ - بغداد | ٢٧ - نهر الفرات |
| ٢٨ - أرمينيا | ٢٩ - جزيرة قبرص | ٣٠ - الفرنجة |
| ٣١ - الآفار | | |

أعظم، هو انتشار السخط بين السكان . ولو أن الدولة البيزنطية حزمت أمرها واتبعت سياسة اكتساب رضا الناس وخففت عنهم أعباء الضرائب وانتهجت سبيل التسامح الديني ، فلربما كان من المعقول أن تبقى على ولاء الشام ومصر نحو الإدارة البيزنطية . ولكن ما اتخذته هرقل من إجراءات لم يكن منها بد ، عادت على الدولة بتنفيذ جميع طبقات السكان منه . فإن جميع ما كان بالخزانة الإمبراطورية من أموال قد استنفدته حروب الفتوح ، كما أن الولايات التي استردت حديثاً سرهان ما ألزمت بتحمل نصيبها كاملاً في أعباء الضرائب وتزويد الدولة بالإيرادات . ومما زاد الموقف ببلاد الشام تفاقماً ، ما كان بين اليهود والمسيحيين من كراهية متبادلة تفجرت فتناً ومذابح هاجت بالمدن الكبرى . وفي (٦٣٤) صدرت الأوامر بتعميد اليهود كرهاً ، على حين أن أنصار مذهب وحدة طبيعة المسيح المسمون بالمونوفيزيتيين ، رفضوا العمل بما عرضه الإمبراطور من صيغة للتوفيق بين المذاهب الدينية ، فأدى ذلك إلى إزوال الاضطهاد بكل من الشام ومصر على السواء . وتنجلى نتيجة ذلك فيما تشهد به التواريخ المعاصرة وتراجم الرهبان الأقباط ، التي تعبر عن الفرح لكل ما حل بالإمبراطورية من هزائم، وتمدها آية على الانتقام السماوى من « هراطقة خلقدونية » .

فتح الشام

دأب عرب الحدود النازلون على أطراف الشام على الغارة منذ زمن بعيد على مدن تلك الثغور ، ولقد لم تثر غارات المسلمين الأولى عليها أى قلق في بيزنطة . إذ حدث في (٦٢٩) قبل وفاة النبي بزمن طويل ، أن البيزنطيين صدوا هجوماً قام به العرب على جنوب فلسطين ؛ غير أن العرب ما لبثوا أن قاموا بعد ذلك بخمس سنوات بحركة أعظم قوة . إذ دخل جيشان من الجنوب (١٦ - الصور)

والشرق وأنزلا الهزيمة بقوات بيزنطة . وما وافت السنة التالية حتى كان العرب يعسكرون أمام دمشق . وبذل هرقل جهوداً جبارة بأسلة لإتقاذ المدينة ولكنها لم تجد نفعا ، وما لبثت أن اضطرت بعد ستة أشهر أن تفتح أبوابها . ثم أخذت المدن الباقية تخر الواحدة تلو الأخرى صريعة أمام الغزاة ، ولم تحافظ على كيائها إلا بيت المقدس وقيسارية وسائر المناطق الساحلية . واستعد هرقل بشجاعة لا تنزل لتوجيه ضربة فاصلة دفاعاً عن الشام . فلما أقبل الربيع ، زحفت على الشام قوات بيزنطية ضخمة جمعت في أثناء الشتاء بمعصية محومة . واستردت مدينة دمشق ، وتراجع العرب أمام القوات المتفوقة عليهم عدداً إلى الجانب الآخر من نهر اليرموك . ودارت بهذه المنطقة عدة اشتباكات ، بلغت ذروتها فيما حل بالبيزنطيين من هزيمة ساحقة على نهر اليرموك (أغسطس ٦٣٦) . فقد ألقي هرقل بكامل قواته في تلك المعركة ، لذا أضاع ما أصابها من شامل التدمير كل أمل في ملاقات العدو مرة أخرى . ومن ثم لم تلبث الحصون أن سلمت واحداً بعد آخر . وما وافت (سنة ٦٣٧) حتى سقطت في أيدي العرب المدن الساحلية : وهي عكا وصور وصيدا وببروت : وشهدت السنة التالية سقوط بيت المقدس وأنطاكية ، وعندما سقطت قيسارية وهي العاصمة الإدارية للبلاد في (٦٤٠) ، أصبحت البلاد بأسرها تدين للسيادة الإسلامية بالطاعة والإذعان .

وقد ركز العرب على الشام قواتهم الرئيسية المعدة للغزو ، ولم تكن حملاتهم على العراق ذات نطاق واسع ، كما أنها لم تصب نجاحاً ملحوظاً . على أن ما أحرزه المسلمون في اليرموك من نصر أتاح لهم أن يحولوا اتجاه الفتوح ، بعد أن دارت رحى معركة عظيمة في القادسية (٦٣٧) ، كان أثرها فاصلاً بالنسبة لبلاد الفرس كاليرموك بالنسبة لمستقبل الشام . إذ تراجعت الجيوش الفارسية بغير نظام بعد أن شقت شملها تماماً ، بينما سارع الملك إلى الفرار من عاصمة

ملكه . وعندئذ زحفت القوات العربية على المدائن (طيشفون) فاستولت عليها وانتهت بها . وسرعان ما اجتاحت جيوشهم أرض الجزيرة ، واندفعت جموع المسلمين إلى أعلى الدجلة والفرات ، ومضت في سبيلها حتى اخترقت سلاسل الجبال الأرمينية . وفي نفس الحين ، واصل الفاتحون حملاتهم في الإمبراطورية الفارسية حتى دانت ولاياتها الجنوبية والشرقية بطاعة العرب ، أما آخراً كاسرة الفرس ، فإنه واصل الفرار شرقاً أمام الغزاة ، حتى لقي مصرعاً غير كريم عند صرو على تخوم بلاد الترك . ومما هو جدير بالملاحظة أن حضارة فارس الأصيلة التي لا تمت للسامية بأدنى صلة ، استطاعت بفضل تقاليدھا الممتازة التي دامت نحو ألف عام ، أن تبدي من عنيد المقاومة للغازين ما لم تبده بلاد الشام ولا العراق . إذ إن فتح فارس لم يكتمل حتى بعد انقضاء عشر سنوات ، ونجحت فارس في الاحتفاظ بلفتها القومية وطرائق تفكيرها .

فتح وسط آسيا

لم يعد للإمبراطورية الفارسية وجود عند عام (٦٥٠) ، ولكن قوة الاندفاع العربي لم تكن تبددت بعد . ومن ثم صار لزماً على أقاليم آسيا القاصية أن تتلقى آنذاك اندفاع السيل العربي الجارف . وكما هو الشأن في الغرب ، كان مما سهل تقدمهم ضعف الإمبراطوريات التي واجهتهم . فقد عمت الفوضى بلاد الترك الذين ظلوا قبل ذلك بحوالى قرن من الزمان سادة لآسيا الوسطى ، وانحلت عرى الإمبراطورية الضخمة لخانهم الأعظم فصارت مجموعة مضطربة من القبائل المتناحرة . وأخذ فرسان المسلمين عند ذاك يزحفون قدماً على هراة وبلخ (٦٥١) . وتوقف الزحف ردهاً من الزمان بسبب ما نشب في العراق من خلافات ثم لم يلبث أن مضى في سبيله من جديد ، ولم تنقض عشرون سنة أخرى حتى سقطت أمام الزحف المظفر بخارى وسمرقند . وفي بواكير القرن الثالني انسابت

موجة جديدة من الفتوح صوب الشمال الشرقي ، حتى بلغت تخوم الصين ، يوم بلغت أسرة تانج الصينية الباهرة أدنى دركات الانحطاط ، وأوشكت التركستان الصينية على السقوط : لولا أن برزت قوى جديدة في الصين ، فوافى القرن الثامن حتى عادت الأمور إلى نصابها . وعند ذلك كانت قدم الإسلام قد توطئت راسخة بكل من بلخ وسمرقند، وسيطرت قبضته على التركستان الغربية، وأمسي متحكماً في ممرات هضبة الپامير ، وفي تلك الأثناء توغل الفرسان المسلمون في الشمال الغربي من الهند . وكانت إمبراطوريات ذلك الإقليم وهي السند وكشمير والپنجاب تخضع لأمراء الجوبتا النازلين جنوبي تلك الإمبراطوريات. على أن هذه السيادة لم تلبث أن انهارت قرب نهاية القرن السابع ، ولذا فإن المد الكامل للفتوح الإسلامية الذي بدأ في مستهل القرن التالي ، حمل راية العرب المظفرة إلى صميم حوض السند ، ووضع أساس العظمة التي بلغها فيما بعد أمراء الپنجاب .

فتح مصر وشمال إفريقية

على أن فتح مصر إلى الغرب كانت له أهمية مباشرة بالغة ، وقد جاء على أثر فتح الشام ، وكما هو الشأن في جميع الحالات السابقة ، سبقت احتلال مصر حملة نهب لقيت من النجاح المفاجيء ما شجع على القيام بعمليات أوسع . على أن القيام بالحملة كان أمراً لا مفر منه . فبالإضافة إلى ما تملكه مصر من الأراضي الغنية بالقمح ، وما لها من مركز عظيم الأهمية التجارية ، فإنها كانت مصدر تهديد مقيم لبلاد الشام الإسلامية ، كما كانت قاعدة بحرية دائمة لكل ما تشنه بيزنطة من هجمات مضادة . وكانت الإسكندرية هي المركز الرئيسي لبناء السفن في شرق البحر المتوسط ، ثم قبض لها إبان القرون التالية أن تصير مهداً لقوة الإسلام البحرية النامية .

وعلى الرغم من أن تفاصيل الفتح ليست واضحة ، فقد برزت فيه شخصيتان كبيرتان . فكان زعيم المقاومة البيزنطية هو البطريق كيروس (Cyrus) ، الذى كان ينولى كذلك مقاليد الإدارة المدنية فى البلاد . وكان قائد القوات العربية هو عمرو بن العاص وهو قائد محنك أظهر جدارته فى حروب الشام . و يتركز الفتح فى حصار حصن بابلون ، وهو يقع غير بعيد من القاهرة الحديثة . ومن العسير علينا أن نصدر تقديراً لسياسة كيروس المقعدة : إذ يبدو أن أهم ما كان يبغيه هو الوصول إلى اتفاق يتفادى به إهراق الدماء بغير جدوى وبحول دون تدمير الممتلكات ، وكانت نتيجة ذلك أن حصن بابلون سلم فى (٦٤١) بعد أن صمد فى دفاعه عدة أشهر ، ثم فتحت أبواب الإسكندرية فى السنة التالية بمقتضى معاهدة كان الداعى إلى عقدها كيروس نفسه ، ثم تواصل بعد ذلك إخضاع ما تبقى من القطر المصرى ، وقد درت سياسة المسلمين فى تلك الأيام الأولى كما أشرنا آنفاً على عزل العنصر العربى عن باقى سكان البلاد المفتوحة ، وجعل العرب طبقة حاكمة تنعم بامتيازاتها الخاصة . ومن ثم اختيرت عاصمة جديدة قرب حصن بابلون القديم فظهرت فى الوجود مدينة الفسطاط أو مصر القديمة ، لتكون المركز الرئيسى لسلطان العرب ، مثلما حدث فى بلاد العراق أن مقر الحكم لم يجعل فى المدائن (طيسفون) بل فى الكوفة (بالقرب من الحيرة) ، لتكون قلعة العروبة الإسلامية . وعلى هذا النحو ، يمكن القول إن استكمال فتح شمال إفريقيا بدأ بإنشاء مدينة القيروان الضخمة .

فتح شمال إفريقية

على أن فتح شمال إفريقية كان عملية بطيئة يثبطها عاملان رئيسيان :
هما مقاومة البربر والنزاع على الخلافة . ومن المعروف أن الحروب العظيمة التي
خاضها جستنيان قضت على الوندال ، وأعادت الرخاء إلى المناطق الساحلية ،
ولكنها أخفقت دون القضاء على قوة مشايخ البربر وكبح جماحهم : فبقيت
في أيديهم مناطق بأكملها ، ولم يصن الأراضى المزروعة من غارات القبائل
سوى اليقظة المستمرة على امتداد شبكة الطرق العسكرية والمعاقل فضلا عن
الأساليب الدبلوماسية والأعطيات المالية التي تصرف في إبانها . على أن
موارد الإمبراطورية استنزفتها حروب هرقل مع فارس وهجمات المسلمين ؛
وكانت عاقبة ذلك أن العاصمة (القسطنطينية) أصبحت عاجزة عن مساعدة
ولايتها الإفريقية ، فضلا عن ضبطها والهيمنة عليها ، ولذا فإن حاكم قرطاجة
شق عصا الطاعة على الإمبراطورية . فكأن الفتوحات العربية التي بدأت حوالى
(٦٤٢) لم تلق والحالة هذه إلا القليل من المقاومة المنظمة ؛ ولكن الاحتلال
الدائم للبلاد تأخر حتى نهاية القرن السابع . ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى
ما اتخذته شيوخ البربر منذ البداية من الروح العدائية للعرب . على أن الموقف
لم يلبث حتى تغير بمجرد دخول رجال القبائل في الإسلام . وقد تركز حكم
قرطاجة وروما للولايات الإفريقية في المدن الساحلية ؛ أما سيادة الإسلام
فاستمدت قوتها من البربر سكان المناطق الداخلية ؛ ومن حشود البربر هؤلاء ،
جامت جموع المقاتلين الذين تدفقوا على مناطق ساحل البحر المتوسط ، حتى
أزالوا بقايا الحكم البيزنطى وانتشروا عبر البحر إلى أسبانيا وصقلية .
ولا ريب أن البربر كانوا العامل الحاسم في هجمات المسلمين على غرب أوروبا .
أما العامل الآخر الذى سبقت الإشارة إليه على أنه عقبة في سبيل تقدم

المسلمين ، فلم يبلغ من الأهمية هنا ما كان له في الشرق . على أن النزاع على الخلافة قد أخرج تماسك مصر ، وبذلك عوّق كل ما وراء ذلك من زحف أو تقدم ؛ يضاف إلى ذلك أن كل قائد يوفق في حملاته كان يتعرض دائماً لإثارة غيرة الخليفة منه ، ولذا فإنه كثيراً ما كان يستدعى أو يعين قائد آخر مكانه . وحرص العرب منذ (٦٤٢) على الاستيلاء على إقليم برقة الساحلى (إقليم المدن الخمسة Pentapolis) الذى يقع غربى مصر مباشرة ، رغبة فى وقاية جنابهم الأيسر من هجمات البيزنطيين ؛ ولـكن إنشاء المعسكر العظيم بالقيروان فى تونس لم يتم إلا فى (٦٧٠) ، وكان الغرض من إنشائه اتخاذ قاعدة لمواصلة القتال والتوسع فى فتح ولاية إفريقية البروقنصلية . وحدث بعد ذلك بنحو اثنتى عشرة سنة ، أن البربر الذين كانوا لا يرحون ضالعين مع المدن البيزنطية قاموا بمصيان عام ، رد المغيرين إلى برقة ، ولذا فإن الفتح النهائى لشمال إفريقية الذى تم فى السنوات الأولى من القرن الثامن ، لم يكتمل إلا بعد أن خضع البربر النازلون بجبال أوراس ، وبعد تمكن العرب من استرضائهم ، وبعد تركز الامتداد الإسلامى على البلاد الساحلية بفضل نمو البحرية العربية .

على أن مشكلة البربر ظلت على ما هى عليه : فلم تكن الإعانات المالية عاملاً كافياً يضمن ولائهم ، كما أن فتح أسبانيا الذى تلا ذلك مباشرة ، إنما يرجع إلى الحاجة إلى توفير الغنائم للحلفاء الجدد وشغلهم ببعض المشاغل . ويبدو أن الهجوم على أسبانيا الذى حدث فى (٧١١) — لم يكن فى البداية إلا واحدة من الغارات العنيفة التى كانت تهبط طوال العصور الوسطى على سواحل جنوب أوروبا وجزرها ، وتمود محملة بنساء المناطق الريفية وبالتماثيل المحلاة بالجواهر والمنتبهة من الأديرة . على أن المغيرين كان ينتظرهم هنا نجاح لم يخطر لهم ببال . ففى أثناء سيرهم على امتداد الساحل ، التقوا بالقوط الغربيين وشتوا شملهم ، وعندئذ بدأوا حركة تقدم وزحف ظافر . ومهد السبيل للنصر

المؤزر كراهية الشعب للقوط ، وما كان من خيانة اليهود الذين أرادوا الانتقام لأنفسهم على ما حل بهم من اضطهاد . ولم ينقض شهران حتى سقطت قرطبة ثم تبعها طليطلة بعد بضعة أسابيع . وقد انهارت مملكة القوط الغربيين كبيت مصنوع من ورق اللعب ، إذ أوهنت تقلبات الأسر المالكة على العرش قوتها ، وأضعفتها الخلافات والفتن الداخلية . وما عتمت هذه الانتصارات الرائعة السريعة التي أحرزتها جيوش المسلمين ، أن استقرت وتماسكت في السنة التالية عندما عبر البحر والى إفريقيا بأمداد وتعزيزات وفيرة ، واستطاع بعد معارك عديدة محكمة طرد فرسان القوط إلى جبال أستورياس ، ثم أعلن من طليطلة سيادة خليفة دمشق على البلاد . واستمر الزحف إلى ما وراء جبال البرانس ، ولم تمض سنوات قليلة حتى صار في حوزة الجيوش العربية البربرية ساحل فرنسا الجنوبي حتى أربونه . ومن هذا المركز ظلوا في الأربعين سنة التالية يناوئون المدن المجاورة ويرهقونها بالغارات : تولوز وآرل وآفينيون . ولكن الطرف الأيسر من الجيش الإسلامي الزاحف كان قد اقترب من النهاية وبلغ أقصى طاقته . ذلك أن أودو (Eudo) دوق قطانية (أكتانيا) (Aquitaine) استبسل في الدفاع عن أسوار تولوز ، وبلغ النضال أقصى غايته في المعركة الحاسمة المعروفة باسم وقعة تور — بواتييه أو بلاط الشهداء سنة ٧٣٢ ، التي هزم فيها شارل مارتل هزيمة ساحقة الجيوش الإسلامية . على أن الواقع أن شدة الغزو كانت تددت ، ولذا فن المشكوك فيه إمكان قيام فتح دائم بجنوب فرنسا . وقد كثرت الأخلاط البربرية في ذلك الحين في الجيوش العربية ، كما أن بوادر العداوة بين الجنسيتين ازدادت عند ذاك وضوحا في أسبانيا وإفريقية . هذا إلى أن مملكة أستورياس التي تقع في الطرف الشمالى الغربى من أسبانيا ، والتي اجتذبت إليها جميع العناصر المناهضة للمغربين ، كانت

تزداد في كل يوم قوة ونموا ، وإذ صارت حاجزا على امتداد جبال البرانس ،
حالت دون تدفق المدد من الجنوب .

الخطر على بيزنطة

على أن الحضارة الأوربية تعرضت لتهديد أشد وطأة ، أخذ يشتد في
الطرف الآخر من البحر المتوسط ، حيث صارت بيزنطة الهدف الحقيقي الذي
يشخص إليه المسلمون ، ولقد كان هذا الهجوم الصادر في الجناح الأيمن للإسلام
أقوى كثيرا من سابقه بصورة مطلقة ، وذلك لأنه كان صادرا من قلب
الإمبراطورية الجديدة ذاته .

ولما وافت (٦٤٢) كانت الكتائب الناهية تمرح في قبادوقيا ، ثم بلغوا
فريجيا في (٦٤٦) ، ولم يلبثوا حتى نفذوا إلى أنقره في (٦٥١ ، ٦٥٣) ،
أما الموقف في أرمينية فكان بالغ الخطورة ؛ إذ تم احتلال البلاد احتلالا منظما
بين عامي (٦٤٦ ، ٦٦٦) . لقد كان مد الزحف متجها نحو بيزنطة في حركات
بطيئة منهلة ، تخللتها هجمات مفاجئة . وبلغ الزحف مدينة خلقيدونية فعلا في
في (٦٦٨) . وفي تلك الأثناء كانت قوة البحرية الإسلامية في نمو مطرد .
فنسلت أساطيلهم من الموانئ الإفريقية وفتحت كريت وليبيا وجزائر
بحر الأرخبيل ، ولم تلبث قبرص حتى أصبحت قاعدة بحرية هامة . وكلما زادت
أساطيلهم جراءة ، زاد ضغطها على العاصمة (القسطنطينية) ، ومالبت العمليات
الحربية أن بدأت بمنطقة الهلسبون (الدردنيل) نفسها . ثم تعرضت
القسطنطينية في (٦٧٣) لهجوم بالغ الشدة من البر والبحر ، ولم يصد الروم ذلك
المهجوم إلا بأقصى مشقة ، وبما كان للنار الإغريقية من أثر رهيب . ثم هدأت
الحملات عشرين عاما تمها فيها للبيزنطيين وبيزنطة المرهقة فترة تنفوسا فيها

الصعداء ، وذلك لما وقع بين المسلمين وقتذاك من الفتن الداخلية ، فانهز البيزنطيون الفرصة واستردوا أرمينية برهة قصيرة . على أن العرب ماعتموا أن عاودوا الزحف في (٦٩٣) ، وتعرض البوسفور مرة ثانية للتهديد . وأخيراً حدث حصار القسطنطينية الكبير في (٧١٧) ، وهب للدفاع عنها الإمبراطور ليو (لاوون) الأيسورى دفاعاً بطولياً مجيداً أحرز من الانتصار الرائع ما أوقف تقدم المسلمين^(١) مدة ثلاثة قرون بعد ذلك .

وربما أمكن اعتبار هذه المعركة إحدى المعارك الفاصلة في التاريخ . وعندما ولى الغزاة وجوههم شطر بلادهم بمد حصار طويل دام عاماً كاملاً أحرقت فيه وسائل نقلهم أو وقعت بأيدي أعدائهم ، وقت في عضد جندهم برد قارس ، وقتك بهم الوباء والمجاعة فتسكاً ذريعاً ، تخلوا لعدة قرون بعد ذلك عن آخر مغامرة جديده لهم على عاصمة الإمبراطورية الرومانية . ذلك أن الأباطرة الأيسوريين أقبلوا على الدولة ينظمونها من جديد ، فشدوا بذلك من قوة الموارد الداخلية للممتلكات البيزنطية ، وبذلك قضوا على احتمال للقيام بعمل مشترك على هذا المعيار الضخم . وآية ذلك أن العمليات البحرية بشرق البحر المتوسط أصبحت منذ تلك اللحظة مقصورة على غارات صيفية ، حتى شاركهم في ذاك عرب المغرب الذين ملكوا صقلية وكريت . على أن ما انعقد لبيزنطة من مجد ، إنما يرجع إلى صمودها منفردة أمام قوة الإسلام السكاملة ، في اللحظة التي بلغت فيها قوة المسلمين ووحدتهم ذروتها ، لا باعتبارها منقذة للتقاليد الإمبراطورية القديمة فحسب ، بل باعتبارها أيضاً صاحبة الفضل مستقبلاً في تخليص أوروبا في العصور الوسطى .

(١) عاود الإسلام تقدمه للمرة الثانية على يد الأتراك السلاجقة بعد معركة مانزيكرت (١٠٧١)

الفصل العاشر

الحضارة الإسلامية

لم يترك محمد (ص) للمسلمين من بعده أية خطة لولاية الحكم، كما أن وفاته حرمت الحركة من ينبوعها الرئيسى - ذلك أنه كان مرجعهم فى كل شئ؛ فإن كلمة الله التى تصدر على لسان رسوله كانت هى العليا. ولم تلبث المناقشات حتى نشبت بين صحابته وهم أتباعه المباشرين، واقترن ذلك بثورة تمرد قامت بها القبائل العربية التى لم تألف بعد سيادة المدينة عليها، على حين نهض بمجبهات مختلفة من شبه الجزيرة العربية، جماعة من المتنبة. على أن حروب الردة الدامية التى أفضت كمارأينا آنفاً إلى إلزام بلاد العرب كلها بالطاعة، كانت لها نتيجة مباشرة هى فتوح الإسلام الخارجية. بيد أنها كانت لها مع ذلك نتيجة أخرى هى قضاؤها على ما كان بين أحزاب المدينة من مناقشات لمواجهة الخطر المشترك. فاختر أبو بكر خليفة للنبي، لماله من وقار وهيبة واحترام، ثم تولى الخلافة من بعده عمر بن الخطاب، وهو سياسى عبقرى من الطراز الأول، وهو الذى وضع أساس الإمبراطورية الإسلامية بما أبداه من براعة فى توجيه حملة فتح بلاد الشام. على أنه اغتيل فى (٦٤٤) بيد مجرم من الروم أو الفرس، فتولى الخلافة من بعده عثمان أحد أفراد بنى أمية .. وبدأت حركة انتقاض على الحكومة المركزية بين جند الكوفة ومصر الذين غلبت عليهم البداوة وزكاها باسم الدين خصوم عثمان - وبدأت فى الخفاء مفاوضات مع مسلمى المدينة انتهت بمقتل عثمان على يد جماعة من جند مصر.

على أن عليا ابن عم النبي ، جانبه الصواب ، حينما رضى بأن يتولى الخلافة بعد عثمان ، وذلك بعد أن انسحب إلى مكة جميع المطالبين بها . ولما كانت البصرة هي التي تناصر هؤلاء المطالبين ، كان طبيعياً أن تناصر الكوفة علياً على منافستها ، وحقق له انتصار الكوفة على البصرة سيادة مؤقتة على العراق . وعند ذلك صار لزماً على علي أن يلتقي بجيش معاوية وإلى الشام ، ومع أن النتائج الأولى للقتال لم تكن حاسمة ، إلا أن ميزان القوة العسكرية والرأي العام مالبت أن تحول رويداً رويداً إلى جانب معاوية . ولكن قبل أن يستطيع الطرفان الوصول إلى نتيجة حاسمة ، لقي علي مصرعه في أوائل (٦٦١) على يد أتباع حزب ثالث . وأعلنت خلافة الحسين^(١) بالكوفة ، ولكنه تنازل عنها لمعاوية بعد ذلك ببضعة أشهر — ومنذ تلك اللحظة استتب الأمر للبيت الأموي الذي قدر له أن يحكم الإمبراطورية حتى (٧٥٠ م) .

وفضلاً عن الأخذ ببدعة نظام الوراثة في الحكم ، التي لم يكن فرضها على العرب من الأمور الهيينة ، فإن هناك تغييرات هامة أخذت تدخل على نظام الحكم^(٢) .

وجعلت دمشق عاصمة للبلاد ، وحلت السلطة السياسية محل ما كان للمدينة من سلطة دينية ، وهي سلطة سياسية استمدت أجهزتها من النظام الإداري البيزنطي . وبلغت قوة الأمويين أوجها في مطلع القرن الثامن . وعلت كلمة الشام واستقرت سيادتها ، وقام على تنفيذ أوامر الخليفة بمختلف الأمصار ولاية أشداء . وجددت حملات العرب على بيزنطة بعنف زائد . وفي الغرب أضيفت أسبانيا إلى ممتلكات الإمبراطورية ، على حين تقدمت الجيوش الإسلامية شرقاً

(١) الحقيقة أن الذي تنازل عن الخلافة هو الحسن . [المترجم]

(٢) انظر ص ٢٦٥ — ٢٦٦ من هذا الكتاب .

حتى بلغت البنجاب ، وتوغلت في أواسط آسيا . وقام بدمشق بلاط رائع ، ازدهر في ظله الشعر وتقدمت العلوم ، كما أن المسجد الأموي بدمشق ومسجد عمر ببيت المقدس يعدان مظهر الازدهار ثاباً أصابه فن العمارة البيزنطى ، بفضل ما اجتمع للعرب من الثروة .

سقوط الدولة الأموية

وهنا أخذ الانهيار يتطرق إلى الدولة . إذ إن الفترة الأخيرة من تاريخ الأمويين ، ليست إلا فترة تعاقب فيها على الخلافة خلفاء قصاص المهود ، ونشبت فيها المنازعات الشديدة وشبت فيها الثورات المدينة . وانبعثت المعارضة للبيت الأموي من جهات كثيرة . ولم يحدث قط أن أئمة المدينة المؤمنين بالحكم الدينى (الثيوقراطى) الانتخابى أظهروا فى أى يوم رضام عن العظمة التى بلغت بالشم جماعة القواد والساسة الوطنيين ، ولذا لم يكن بد من أن تواجه الدولة مؤامرات مستمرة فى ذلك البلد . وتطورت المنازعات المحلية حتى غشت تنافساً بين القيسية عرب الشمال وبين اليمنية أو القطحانية عرب الجنوب ، ومالبت أن انتشرت بكل أرجاء الإمبراطورية . كما أن ما أحدثته الفتن الداخلية من التمزق والانقسام فى إفريقية وأسبانيا لا يقل عما أحدثته فى العراق وخراسان ، بل إن أصداء التنافس ترددت داخل البيت الأموي نفسه وتمخضت عن كثير من الاغتيالات داخل القصر وعن عزل العديد من الخلفاء . على أن ألد أعداء تلك الدولة كانوا هم الشيعة ، الذين استقرت قيادتهم العليا ببلاد العراق . ومن المعلوم أن السكوة جعلت عاصمة للدولة أيام خلافة على القصيرة الأجل . ولذا لم تبرح لتلك الذكرى الذهبية صورة ماثلة تزيد فى حدة الشعور بالكراهية والامتناع نحو أهل الشام الذين تفوقوا فى القوة والحضارة . ولم تلبث حركة الشيعة أن اتشعت وريداً بتلك الألوان العاطفية الحادة التى تتخذها كل فحلة

دينية . فرغ على وابنه الحسين اللذان سقطا دفاعاً عن قضية أهل السكوفة إلى مصاف الشهداء والصديقين . وصار صهر رسول الله وسبطه الحسين شهيدى الإسلام . وأصبح لسلاتهم أو لفئة معينة منها على الأقل (وهى مسألة أثارت خلافاً جديداً) الحق الشرعى دون غيرهم فى تولى الخلافة . على أن الثورة لم تنبعث من العراق ، بل من فارس . فعلى الرغم من أن فارس ظلت على الجملة موالية لبني أمية أيام رفعتهم ، كما بقيت بعد سقوطهم أشد إخلاصاً لذكراهم من أية ولاية أخرى عدا الشام ، إلا أن أطرافها الشمالية الشرقية كانت مسرحاً لثورة غيرت وجه العالم الإسلامى بأكمله .

وقد ظهرت فى خراسان حركة قوية مناهضة لأهل الشام والأمويين يؤيدها عرب الجنوب القحطانية ويسيطر عليها النفوذ الفارسى ، وتولى مرشحها أبو العباس الملقب بالسفاح ومؤسس الأسرة العباسية خلافة المسلمين ، فأمن فى سفك الدماء إمعاناً يبرر إطلاق اللقب عليه . وراح يطلب أفراد البيت الأموى ويقتلهم الواحد بعد الآخر ، ولم ينج منهم إلا واحد لاذ بالفرار غرباً حتى بلغ أسبانيا ، وهناك استتب له الأمر واستولى على مقاليد السلطان وفى تلك الأثناء أحرقت رفات الأمويين السابقين وذريت فى الريح ودمر كل ماشيدوا من قصور وقناطر سقاية تدميراً شاملاً . ذلك أنه قد حانت بداية عصر جديد ؛ وذلك هو الشعار الذى اتخذته الفاتحون .

الإمبراطورية الإسلامية

وكان الفاتحون فى ذلك على جانب الصواب . إذ يسجل انتصار العباسيين تغييراً شاملاً فى الإمبراطورية الإسلامية ، كما يتبين ذلك فيما بعد فى كل ما يتعلق بالأمور الإدارية والاجتماعية . فمنذ تلك اللحظة تحلى الفاتحون العرب عن مكانتهم السامية الانعزالية . فقد ظهرت أهمية ما كان من تزايد عدد من اعتنقوا

الإسلام ، وضرورات الحكم والإدارة والتجارة ، وتفوق الشعوب الغزوة في الكثرة والحضارة . فلم يعد الإسلام دين السيد الأعلى العربي ؛ بل أصبح القوة التي يرتبط بها المسلمون من جميع الأجناس . والخليفة هو رمز تلك القوة . فلم يعد ذلك الخليفة كشأنه في عهد الأمويين المدير لخطط الفتح والاستغلال ، يسانده في ذلك جنس ملكي إمبراطوري . وعلى الرغم من ازدياد أجهزة الحكم وتعقد النظام الإداري ، فإن أقاليم الإمبراطورية الإسلامية نجحت في تحرير نفسها مما للسلطة المركزية من هيمنة سياسية ، على حين ظلت على ولائها لسلطة تلك الحكومة الدينية - وكانت أسبانيا أولى البلدان التي انفصلت عن الدولة .

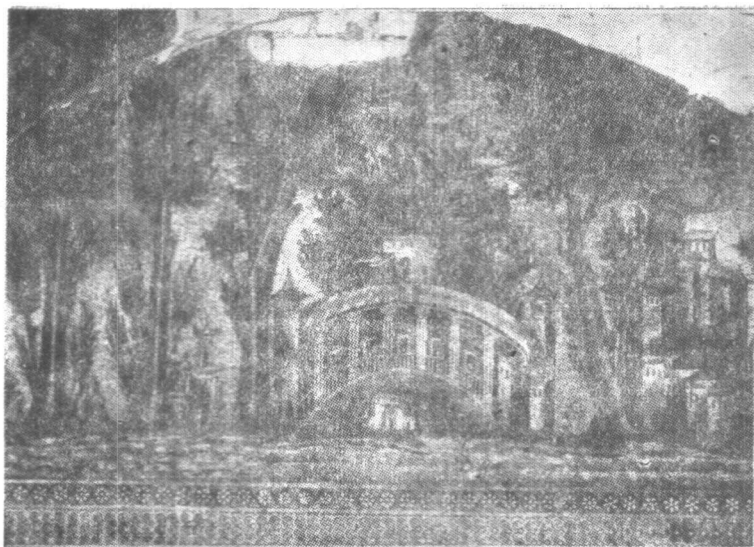
ففي (٧٥٦) نودي بعبد الرحمن ، آخر من بقي حيا من الأمويين ، أميراً وأخذ يحكم البلاد بوصفه أميراً مستقلاً . ولم تلبث ولاية إفريقية أن حنت حذوها .

ففي (٧٨٨) أسس إدريس بن عبدالله ، وهو من سلالة على إمارة بمائلة بمرآكس ، هي إمارة الإدارة التي جعلت فاس عاصمة لها . وهنا أيضاً لم ينتقض أحد على السلطة الدينية للخليفة ، وإن كان الأمير مستقلاً بالفعل - واستقرت في القيروان بأرض تونس إمارة أهم من إمارة الإدارة . إذ إن إبراهيم بن الأغلب حوالى (٨٠٠) أسس أسرة الأغالبة ، الذين سيطرت قوتهم البحرية طوال القرن التاسع على الحوض الأوسط للبحر المتوسط . وواصل المسلمون فتح صقلية حتى تم لهم ذلك في (٩٠٢) . ولم يكفوا عن الغارة على جنوب إيطاليا وإعمال السلب فيه ، وفي (٨٤٦) كانت روما نفسها مسرحاً لإحدى مغامراتهم الجريئة . وحوالى (٨٧٠) وقعت في أيديهم مالمطة التي تعتبر مفتاح التجارة الغربية على حين أن مدن البحر الأدرياتي ، ظلت آنذاك على الدوام تحت رحمة القراصنة المسلمين المغيرين عليها . ولم يتم دفع العرب إلى إفريقية إلا بعد قدوم النورمان في النصف الثاني من القرن الحادى عشر . على أن مصر لم تنفصم روابطها نهائياً بالسلطات العباسية إلا عند الفتح الفاطمى لها في (٩٦٩) ، وعندئذ تحولت

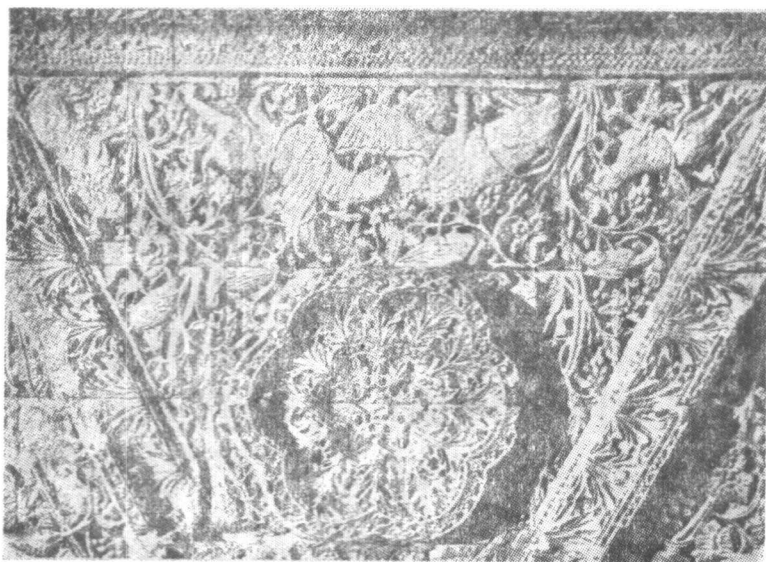
مواردها التي كانت فيما سلف تنصب في خزائن بغداد إلى تجميل القاهرة ، وأصبحت في أثناء القرون التالية من أزمى عواصم العالم الإسلامي وأخفها . وأخذت الأقاليم في الشرق والغرب تنسلخ ويستقل الواحد منها بعد الآخر ، حتى إذا وافى القرن العاشر الميلادي ، لم تعد الإمبراطورية الإسلامية وحدة سياسية . على أنه ساد أرجاء الإمبراطورية الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها وحدة من نوع آخر ، لا تقل أهمية عن الوحدة السياسية ، غير أنها لا تنضارعها من الناحية المادية . فلم يكن عبثاً أن نفس الأذان الداعي إلى الصلاة ، كان ينطلق في نفس الوقت من مآذن قرطبة والقيروان والقاهرة ودمشق وبغداد ، وأن كل الوجوه كانت تنجه كل يوم صوب مكة ، وأن كل القلوب كانت تهفو إلى الذهاب إلى تلك البقعة المقدسة أداء لفريضة الحج . وئمة رابطة أخرى اجتمعت إلى وحدة العقيدة هي وحدة اللغة ، ذلك بأن العربية أصبحت في كل مكان لغة الدين ووسيلة العلم الصحيح ، وأكبر آية على ما بلغته بغداد من مكانة وغخامة مسارعة جميع الأقاليم إلى محاكاة نظام الحكم فيها وتقليد عرفها وعمارتها ؛ كما أن فيض التجارة الدافق الذي ينساب برا وبحرا من أقاصى أرجاء آسيا إلى المحيط الأطلسي ، أحاط مختلف شعوب الإسلام بشباك حضارة خصبة متعددة الجوانب .

النظام الإداري في حكم العباسيين

وفي أيام الإسلام الأولى التي تقدم محمد (ص) فيها أتباعه في المدينة للالتقاء عسكرياً بالقوافل ، كان كل ما يحتاج إليه الأمر من التنظيم المالي هو تقسيم بسيط للفنائم . واستمر هذا الأمر طويلاً في المرحلة التالية ؛ وذلك لأن الإمبراطورية الأموية في عهدها الأول كانت في واقع الأمر تقوم على نظام الفنائم . فكان

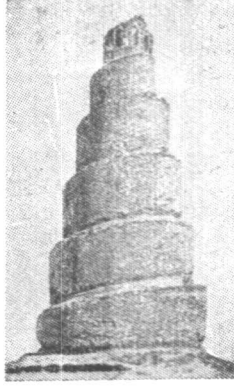


١٠ - (١) صورة فسيفساء من المسجد الكبير بدمشق

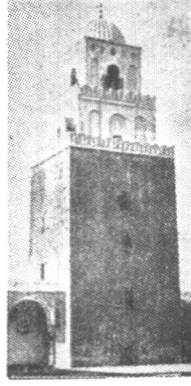


١٠ - (ب) صورة نقش محفور من المشتى

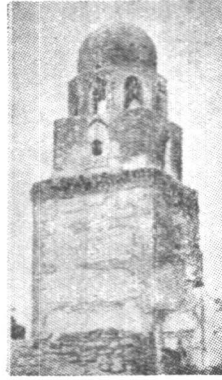
(٢)



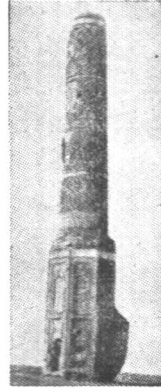
(١)



(٤)



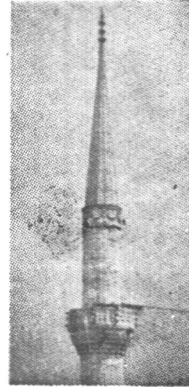
(٣)



(٦)



(٥)



١١ - أنواع المآذن :

- (١) من شمال إفريقية (٢) عراقية (٣) فارسية
(٤) مصرية (٥) من القسطنطينية (٦) هندية

الفاتحون العرب ينزلون في معسكرات حربية ضخمة ، ويأخذون الجزية التي كانت تفرض على الشعوب المقهورة . ثم يرسل فائض الدخل إلى بيت مال المسلمين بالمدينة ، فيوزع منه الخليفة الأعطيات على الناس .
وسرعان ما تجلّى للقوم أن هذه الخطة لا تكفي للقيام بمحاجات الإمبراطورية . وكلما زاد الإسلام انتشارا بين الناس ، تضاعف ما تحصله الدولة من الخراج ؛ وذلك لأن الازميين وخدامم هم الذين كانوا يدفعون الجزية - وعندما زادت هذه الطبقة نفوذا وصوتا ، لم يكن بد من أن تثير شكاياتها المتاعب ، وتبين آخر الأمر أن هذه الطبقة كانت من أهم العوامل التي أدت إلى سقوط الدولة الأموية . وأخذت الأنفس تضيق رويدارويدا بالنظرية القائلة بشعب أو عنصر ممتاز مسيطر يرتهن في يمينه شعوبا ومناطق مترامية . وتتجلى إحدى مراحل تلك العملية في الحل الوسط الذي تم به إلزام جميع أصحاب الأراضي ، بدفع الخراج (أى ضريبة الأراضي) إلى بيت المال ، بغض النظر عن عقيدتهم ، بينما التزم الازميون بدفع ضريبة الرؤوس (الجزية) ، لتكون آية واضحة على تفوق المسلمين .

ولم يكن انهيار هذا النظام القائم على الاعتزال والسيادة العنصرية إلا واحدا من التغيرات العديدة التي آذن بها قيام الدولة العباسية . إذ إن الممتلكات الإسلامية قد انتزعت من قبضة إمبراطوريتين عريقتين في الحضارة : هما فارس وروما . ولم يكن للعرب من الخبرات السابقة ما يأمم للنظم الإدارية المعقدة التي اقتضتها ضرورات أحوالهم الجديدة . وكانت النتيجة أن الفاتحين احتفظوا في كل من مصر والشام بالجهاز الحكومى البيزنطى ، كما أن البرديات المكتشفة حديثا تشهد بمواصلة الغزاة الاحتفاظ بالنظم المالية والإدارية بهذين القطرين . ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد ، كان لنفوذ الفرس

أثر محسوس في الحكومة المركزية . إذ لم تكن العاصمة الجديدة لتبعد أكثر من ثلاثين ميلا عن طيشفون (المداين) ، وهي العاصمة القديمة للملوك الساسانيين . ولم تلبث الأسرة الجديدة (العباسية) أن حاولت مزج العنصرين الفارسي والعربي ، وإقامة توازن متكافئ بين الطرفين . وأشد مظهر لهذا التغير إنما يتصل بمركز الخليفة نفسه . فقد كانت السلطة الصادرة عن المدينة تتخذ طابعا روحيا في عهد أبي بكر الذي ولى الخلافة بعد النبي مباشرة . على أن ساسة بني أمية في دمشق حولوا هذه السلطة فيما بعد إلى سيطرة سياسية منظمة ، وإن بقيت آثار من أصلها العربي فيما عرف عن الحكم الأموي من التمسك بأساليب القومية العربية . أما الخلافة العباسية فإنها تعد بمعنى ما ، عودة إلى مبادئ الإسلام الأصلية . وذلك لأن الحركة التي أوجدت تلك الخلافة قد غلب عليها الطابع الديني إلى حد كبير ، وهي تعتبر رد فعل طبيعي للطابع الدنيوي الذي اشتهر به الأمويون ، وكانت النتيجة المنطقية أن الحكم الجدد حرصوا على دعم سلطتهم بنظريات فقهاء المدينة ، وهي نظريات اقتبسوها من نصوص القرآن واستندوا فيها إلى بعض الأحاديث النبوية ، وتجلت فيها الاستفادة والمعاناة في البحث والدرس ، وذلك لأن فقهاء الحجاز المؤمنين بالحكم الديني (الشيوعراطي) ، ظلوا نيفا وقرنا من الزمان نافرين ومباعدين عن كل مشاركة في حكم المسلمين القائم بدمشق . وكان حكم الخليفة العباسي مطلقاً من الناحية النظرية . غير أن هذا الحكم المطلق كان مقيدا من نواح عديدة . فإن سيادة الخلفاء على مختلف الإمارات كانت كما أسلفنا إليك سيادة ظاهرية لاحقيقية ، بل إن سلطة الخليفة في العاصمة نفسها كثيرا ما طغت عليها سلطة الوزراء . وكان الخلفاء الضعاف يقنعون بالانسحاب من مشاهد الصراع في الحياة العامة وينصرفون إلى إشباع رغباتهم بمعزل عن الدنيا ، تاركين لموظفيهم شئون

الحكم في الإمبراطورية ، وموكلين بخدمة الخراسانية أمر حراسة أشخاصهم . ولم يفت قواد الجيش أيضاً أن يحرزوا نصيبهم من السلطان السياسى ، إذ كثيراً ما كان رجال الجيش ينصبون الخلفاء ويعزلونهم . وكانت تتبع الوزراء سلسلة معقدة من الإدارات الحكومية وهى المعروفة بالدواوين ، التى تتولى شئون بيت المال والقضاء والجيش والديوان الخاص وما إلى ذلك . ومن أهم هذه الدواوين ديوان البريد ، وهو مثال طريف للطريقة التى ورث بها الخلفاء تقاليد كل من روما وفارس . فإن لفظة « البريد » منقولة عن اللفظة اللاتينية (Veredus) ، أى الحصان المخصص لنقل الرسائل ، ولا يختلف نظام البريد عما كان معروفاً باسم (Cursus pudicus) أى المراسل العام فى أنه نظام حكومى ، الغرض منه تحقيق سيطرة الحكومة المركزية ، وضمان سرعة انتقال الجند والموظفين . ومن مظاهر نظام البريد ما يرجع أيضاً إلى النظام الفارسى فى عهد الأخمينيين ، الذى وصفه هيرودوت ؛ وكان من بين أغراض نظام البريد العباسى كسلفيه الأقدمين ، مباشرة الجاسوسية التى كانت تمارس على نطاق واسع فى كل طبقات المجتمع . على أن ما بلغته هذه الجاسوسية من نمو متزايد جعلها من أهم أجهزة الحكم ، يعد نموذجاً لما ساد بغداد من طرائق الحكم الشرقى . فلم يكن للحكومة ثقة بأى موظف ، حتى أسرة الخليفة نفسها كانت موضع رقابة شديدة . وكانت الشرطة تؤلف جزءاً هاماً من إدارة المخبرات ، وتشمل واجباتهم التدخل فى أدق تفاصيل الحياة اليومية ، ومما زاد فى تقييد حرية الرعية ، ما زخرت به كل مدينة من عدد ضخم من الموظفين المحليين والقضاة وجباة الضرائب والقائمين على أملاك الخليفة .

وكان للتغير الذى أحل حكم العباسيين ذا الطابع العالمى ببغداد محل حكومة دمشق القومية ، نتيجة أخرى هى التعجيل بامتزاج الغالب

بالمغالوب . فنذ تلك اللحظة ، صار الجميع يخضعون لحاكم واحد ، على أن الواقع أن عملية التسوية بين الجميع بدأت في عهد بنى أمية . فطالما كان العربى — وهو القليل العدد والمحدود علماً — يحتفظ لنفسه بفضل امتلاك العقيدة الحقّة ، ويعيش فى عزلة شديدة كأنه من أهل إسبرطة ، ويتباعد عن القطيع العام من الناس بمعسكره المسلح ، ويحصل على عيشه من أعطيات الخليفة ، فإنه بفضل ذلك كله كان مستطيعاً الاحتفاظ بمركزه الأمين الممتاز . ولكن هذه الامتيازات لم تدم طويلا . وكان من العوامل التى أفضت إلى ذلك ، أن الحذب على المصالح المادية وإغفال الاهتمام بالدين ، أدبا إلى تزايد عدد من اعتنقوا الإسلام من غير العرب ، فنقصت بذلك الجزية المجدبة من الهمدين ؛ كما أنه حدث من ناحية أخرى ، حينما انتهت حروب الفتح ، أن لم يعد العرب يعيشون على الأعطيات التى يتقاضونها من الدولة ، وصاروا أصحاب أرض وفلاحين أو تجاراً صغاراً يخضعون للقوانين الاقتصادية والصفات الاجتماعية السائدة فى البلاد التى يتصادف استقرارهم فيها . وكان لابد له من التعليم والقدرة الفكرية إن هو شاء الاحتفاظ بمكانته . ذلك أن الحضارة المعقدة التى استقرت ببلاد الإسلام أيام بيزنطة ظلت ماضية فى سبيلها دون تغير كبير ، وظلت كدأبها فى الماضى تحتاج إلى المحنّكين فى الشئون الإدارية . وقد دعت الحاجة المسلمين حتى فى أيام الفتح إلى استخدام المسيحيين فى أعمال تتطلب الثقة وبخاصة فى الشئون المالية: كما أن تسامح بنى أمية إزاء غير المسلمين ، أفسح لهذه المجتمعات مجال اليسار المادى على شريطة تسديد الضرائب المقررة ؛ وهى ضرائب لم تكن فى جملتها أثقل بأية حال من تلك التى كانت تبترها الحكومة البيزنطية . ومنح المسيحيون نصيباً كبيراً من الحكم الذاتى ، فزخرت البلاد بالكنائس والأديرة . ومما له دلالة ، أن هذا الزمان امتاز بما بذله الفسطرة من نشاط تبشيرى تغلغل فى آسيا حتى بلغ الصين نفسها .

ومع ذلك ، فقد مررت أوقات كان للتعصب الدينى فيها سلطان غالب على النفوس . ولم تجد نعمة الكبرياء العربية متنفساً تعبر فيه عن نفسها خيراً من المراسيم التى تحرم على النصرارى امتلاك أرقاء مسلمين وتنكر عليهم أنواعاً متنوعة من الامتيازات القانونية ، بل حتى تصر على ارتدائهم زياً خاصاً . على أن الانجاء الرسمى ظل فى جملته ينزح إلى التسامح ، كما أن تناقص عدد المجتمعات المسيحية لا يرجع إلى الاضطهاد الدينى بل إلى أسباب أخرى . فإن الطبقة المتعلمة من أبناء العقيدتين كانت تكتشف أن بين الديانتين أسساً كثيرة مشتركة ، كما أن تطورات الفكر الإسلامى بكل من مصر والشام تشهد بتأثير الفكر المسيحى . وكما هو الشأن فى أيامنا هذه بذلت محاولات للتوفيق بين الدين والعلم الحديث ، ولذا فإن الأساس الفلسفى للعالم القديم الذى يمثل خلفية تم التوفيق بينها وبين المسيحية إلى حد ما ، قد وجب آنذاك اللجوء إليه لشرح شعائر الإسلام وعقائده ، حتى يلقى الدين الجديد قبولا لدى المفكرين . على أن غير المفكرين كانوا فى الحين نفسه يرون أن التوفيق الرائع الذى أصابته الجيوش العربية تتجلى فيه رعاية الله وصنيعه ، فلم يسمعهم إلا الإذعان للأمر الواقع . ونم عامل أخير كان له أثر عظيم فى أخيلة الناس ، هو ما ذاع فى الآفاق من سنا العظمة من العواصم الإسلامية الكبيرة ، التى كانت تتشكل بها حضارة زاهرة متأثرة بجميع العوامل حديثها وقديمها . فقد حدث فى أسبانيا مثلاً ، أن لاتينية المؤرخين وعلماء الدين (اللاهوتيين) ذات الطابع المتبرير لم تستطع أن تصمد لتقاء ما للشعر والأدب العربى من جمال فائن : فإن كاتباً من أبناء القرن التاسع شكاهم الشكوى من أنه يوجد بين المسيحيين أنفسهم من يقدرون جمال اللسان العربى تقديراً يفوق كثيراً تقديرهم لكتاب الآباء الأولين .

التجارة

وكان اتساع التجارة العظيم التالى لقيام الإمبراطورية الإسلامية ، من التطورات الرئيسية التى فرضت عليها تلك الوحدة السابق الإشارة إليها . فبالإضافة إلى أن صناعات مصر والشام وهما أغنى أقاليم الإمبراطورية البيزنطية ، واصلت كسابق عهدها إنتاج المصنوعات الزجاجية والمنسوجات وغيرها من السلع المصنوعة ، فإن العهد الجديد حقق للتجارة مزايا خاصة . ذلك أن العربى ما يكاد يستقر حتى يتجه بطبعه إلى الاشتغال بالتجارة . وكان رخاء مملكة الحيرة يقوم على أسواقها العظيمة ، وذلك هو الشأن فى رخاء اليمن القائمة فى الطرف الأقصى من الجزيرة العربية ، ومرجعه إلى البضائع الآسيوية التى كانت تمر بيمينائها ، بينما كانت أسواق مكة وقوافلها تشكل الصناعة الرئيسية فيها . وكان النبي نفسه تاجراً ، والقرآن يجعل للتاجر منزلة كريمة . ولذا فإن أحوال الحياة الاجتماعية الإسلامية تفوق فى ملائمتها للنشاط التجارى أحوال العالم اليونانى بما اشتهر به من احتقار لكل صاحب حرفة . ولا تنس أن التركيب الجغرافى للعالم العربى كان يوائم تلك الغاية بصورة خاصة . فقد انتهى عند ذاك ما كان بين روما وفارس من عداوات أوقفت تدفق التجارة بين الشرق والغرب ، وبذا أصبحت تخضع لأمر واحد كتلة متماسكة من الأرض ، تمتد مترامية من المحيط الأطلسى إلى سهوب آسيا الوسطى . ولم يعد البحر الأحمر والخليج الفارسى خصمين متنافسين ، بل أصبحا طريقين متبادلين ، وبذا أصبح كل ما يصل إلى أوروبا من ذهب وعاج من وسط إفريقيا ، ومن توابل وعطور من الشرق الأقصى ، لا مندوحة له أن يمر على أيدي المسلمين . ومما يجدر ملاحظته أن المدن الكبرى بالإمبراطورية إنما تقع عند التقاء طرق المواصلات الطويلة . فمدينة

دمشق الى تقع عند نقطة تقترب فيها القوافل القادمة من وسط آسيا من البحر المتوسط ، كانت تنلق كذلك تجارة مصر والشام وما يرد من السلع عن طريق البحر الأحمر . أما القاهرة فكانت سوقا للمنتجات الخام الواردة من آسيا وإفريقيا ، كما أنها كانت مركزا صناعيا ، وكانت تنتشر من مصر على ساحل البحر طائفة من المدن التجارية الزاهرة تؤدي إلى عواصم شمال إفريقيا وأسبانيا . وقد بنيت البصرة على نهر الفرات بعد فتح فارس بزمان وجيز ، وذلك بقصد السيطرة على الخليج الفارسي وتجارته الشرقية . ولكن سرعان ما طغت بغداد على أهميتها . وشقت بين دجلة والفرات قناة ربطت بين بغداد وبين الطرق البرية القادمة من آسيا الصغرى والشام ومصر ، على حين أن القوافل المقبلة من آسيا الوسطى كانت تنهبط عند أبوابها قادمة من مرتفعات فارس وبخارى . بيد أن التجارة البحرية كانت أرحب مجالا . وتروى قصص السندباد البحري التي تصور ذلك الرجل مقيما في أوائل القرن التاسع في عهد الخليفة العباسي هرون الرشيد ما يشير إلى أن جميع رحلاته تبدأ من بغداد ، كما أن كثيرا من الأحداث والأماكن المذكورة فيها ، يمكن تحقيقها من مصادر أخرى . وتصف كتب الأسفار العربية التجارة في سيلان وملبار ومدن السواحل الهندية . وتشير السجلات الصينية إلى ما كان بالصين من تجار العرب في عهد أسرة تانج . بل إن منهم من بلغ كوريا . وفي الغرب ، أظهرت موانئ مصر وشمال إفريقية نشاطا مشهودا ، كما أن السفن المصرية والإفريقية كانت تربط مدن الساحل الجنوبي من البحر المتوسط حتى أسبانيا غربا . على أن تجارتهم مع فرنسا وإيطاليا كانت ضئيلة لانتكاد تذكر ، إذ كان المسلمون يهبطون هذه الشواطئ قراصنة لانيجارا . وظلت بيزنطة مركزا للتجارة الأوربية ، ولم يلتق المسلمون والمسيحيون لتبادل السلع إلا في القرن العاشر ، حيث بدأ العرب يجوسون خلال أسواق بيزا وأما في تجارا آمين .

على أن تأثير التجارة الإسلامية كان محسوسا فيما وراء حدود الإمبراطورية الإسلامية بآماد شاسعة . ففي الشمال كانت طرابزون مركزا هاما للتجارة ، لا يؤمه التجار من أجل سوقها فحسب ، التي اجتذبت إليها التجار من كل أرجاء الشرق الأدنى ، بل لأنها أيضاً كانت نقطة الحدود التي تلتقى عندها تجارة الروم والعرب . وبهذه الوسيلة كانت المنسوجات والمصنوعات المعدنية وغيرها من المنتجات تتخذ طريقها إلى القسطنطينية ، ومن الممكن ترسم أثرها في الحضارة البيزنطية . وكان سيل من التجارة يتدفق في مجرى الفولجا وغيره من الأنهار ، ويصل إلى وسط روسيا واسكنديناو عن طريق مملكة الخزر . وآية ذلك أن مقادير ضخمة من العملة الإسلامية معظمها من خراسان والجهات الشرقية للخلافة الإسلامية ، اكتشفت بجهات نائية مثل ألمانيا وأقاليم البلطيق ، ويدل مصدرها واتساع توزيعها على ضخامة حجم التجارة بين الأقاليم الآسيوية وشمال أوروبا ، وهي تجارة بلغت ذروتها في السنوات الأولى من القرن التاسع .

ومما زاد في حجم التجارة ونشاطها داخل العالم الإسلامي ، رحلات الحج التي تدعو إليها العقيدة الإسلامية والتي كان الخلفاء يشجعونها . وعنيت الدولة بتحسين المواصلات بما احتفرت من آبار وما شادت من فنادق القوافل (المسافر خانات) ، وأقيمت الأسواق الكبيرة بمراكز الحج . وكلما فقد الحكام العرب المثل العليا التي استنها لهم نبيهم ، والأخلاق البسيطة التي أورثها لهم أسلافهم ، نقلوا عن الإمبراطوريتين القديمتين اللتين حلوا محلها حب الترف والمظاهر ، فأحاطوا أنفسهم بأبدع المباني وأفخر الرياش ، فازداد بذلك الطلب على المنتجات الدقيقة والسلع المستوردة .

الأدب الإسلامى

إن التطور الذى نالته حضارة الإسلام الروحية قد سار جنباً إلى جنب مع حضارته المادية . وكما أن الفاتحين العرب أدركوا أن من الضرورى لهم تكييف عاداتهم وفق النظم القديمة التى هى أعلى تطوراً وقد وجدوها عند الشعوب المقهورة ، فقد حدث أيضاً أن الفقهاء أدركوا - وقد واجهتهم فى الخارج فلسفات متضاربة متناحرة واصطكوا فى الداخل بنزعات متشعبة - أن عليهم أن يوضحوا القرآن ، بأن يقيموا على أساسه السهل صرحاً ضخماً من التفسيرات والشروح . ولما كان القرآن لديهم المصدر الأعلى للدين والشرعية والأخلاق ، صار من الضرورى لهم التوفيق بين آياته وعمل تصنيف لتلك الآيات ووضع ترتيب لها . والنماسة للقواعد والأحكام حاولوا باستخدام القياس والاستنباط أن يجعلوا أحاديث الرسول تنطبق على أحوال لم يكن يتوقعها . ومن ثم فإن الأصل فى شطر كبير من الإنتاج الأدبى الرائع الذى ظهر فى العهد العباسى ، إنما يرجع إلى دراسة القرآن . بل إن أول دراسة علمية للنحو العربى ، لم تتم فيما نقول الروايات ، إلا بقصد المحافظة على نص القرآن . ومهما يكن الأمر ، فإن تطور اللغة العربية كلفة أدبية مرتبط ارتباطاً وثيقاً بما أحسه أتباع العقيدة من حاجة إلى الشرح والتوضيح . واقتضت الرغبة فى تتبع تعاليم النبي ، إجراء دراسة حول حياة النبي وتقاليده أسرته . فإذا اجتمع ذلك بدراسة حياة الأبطال الأوائل للإسلام ، تهياً الباعث لكتابة التاريخ ، التى جعلها المؤرخون المسلمون تنطوى على قدر كبير من التراجم والنوادر . وعلى هذا النحو ظهرت طائفة ضخمة من المصادر التى تعالج الفقه ، واستندت أساساً إلى القرآن ، باعتبارها البنوع الأول والمرجع الأصيل .

أما من حيث علم أصول الدين ، فإن المفكرين المسلمين أخذوا يواجهون من المشاكل ، ما يماثل ما سبق أن كدر صفو الكنيسة فى مستهل أيامها .

وبتأثير مدارس الفلسفة اليونانية بدأ القوم يستخدمون الاستدلال المنطقي في موضوعات من أمثال وحدانية الله وصفاته ومسألة الجبر والاختيار . وفي أثناء النصف الأول من القرن التاسع بلغ التحدى للسنيين الذين يلتزمون حرفية التقاليد الدروية في تلك المحاولة المنظمة التي بذلت للتوفيق بين العقل وسلطان الدين . وفازت الفلسفية الكلامية الرسمية بالظفر في تلك المعركة، ومنذ تلك اللحظة لم يكن سبيل للهرب من جذب تلك الفلسفة الكلامية «المدرسانية» وجفافها إلا باللاجوء إلى طريق التصوف . وانتهجت الفلسفة المحضة ذلك الطريق نفسه . وبذل ابن سينا (المتوفى ١٠٣٧) محاولة قاطعة للتوفيق بين مذاهب أرسطو وبين الفكر الإسلامى ، وواصلت القيام بعمله مدرسة المفكرين الأندلسيين الضخمة التي كان لها أثر بالغ القوة على أوروبا في القرون الوسطى . فإن العقيدة الإسلامية السنية احتفظت بمكانتها في الشرق ولا سيما في فارس ، وعلى الرغم من أنر الغيبيات (الميتافيزيقى) وعلم النفس اليونانى في الشرق ، فإن العنصر التصوفى سيطر على الفكر الفلسفى الذى تطور بتلك المنطقة . وكان للترجمة من اليونانية كذلك الفضل فى كثرة مآظفر من مؤلفات فى الطب ، وازدهرت مدرسة كبيرة من الأطباء فى عهد الدولة العباسية . وكان احتذاء حذر اليونان دافعا للمسلمين على إنشاء دوائر المعارف ، كما أن ترجمة نظريات اليونان والهنود فى الفلك والرياضة أدت إلى وصول علماء الإسلام بعد ذلك بزمن غير بعيد إلى مكتشفات تنصف بالأصالة . وفى تلك الأثناء ازدهر الأدب فى البلاط العباسى — على أنه والحق يقال أدب «تهرب» لا أدب تعبير ، واسكنه يتميز بما يترقرق فيه من فنتنة ساحرة وأستاذية فنية باهرة . وازدهر النثر فتشكل أخيلة رائعة ومفانن دقيقة خلافة ، على حين كان الشعر يتراوح بين الغزل الرفيع والخرجات المرححة وبين ماغلب على شعراء الزهد والتصوف من التأمل السوداء .

الفن الإسلامى

أما الفن الإسلامى فإنه هو أيضاً يقوم بتمثيل الأوضاع المحيطة به ، إذ يستطيع المتأمل أن يشهد فى تطوراته بوضوح لا بأس به ، المؤثرات الكبيرة التى تكاثفت لإنتاج حضارة عظيمة . فهو خلاصة لتاريخ الإسلام فى كل نواحيه . على أنه نظراً لاسرعة ازدهاره يعطينا لأول نظرة نلقها عليه مظهر أسلوب جديد أصيل انتشر منذ القرن التاسع إلى القرن السابع عشر حتى شمل أصقاعاً مترامية : تمتد بين آسيا وشمال إفريقيا ومصر والشرق الأدنى وفارس والتركستان وشمال الهند ، بما حفلت به من المدن الضخمة والمساجد الفخمة والقصور المتألقة ، وجميعها تتسم بالتجانس فى البناء والحلية ، على الرغم من بعض التنوع الراجع إلى المؤثرات المحلية . على أنه ينبغى ألا يغيب عنا أن هذا المهر خداع . فلا بد للمرء من الرجوع إلى المصدر الأصلى لكى يتبين أن الطراز إن هو إلا خليط صيغ من العناصر القديمة ، هو عملية انتقاء ولدها الظروف الخاصة التى هيأت لجنس فاتح أن يستثمر مختلف الطرائق والتقاليد الفنية عند مجموعة من أقوى الأجناس روحاً فنية . فإذا تجاوزنا عن ثروة الأقاليم المفتوحة ورغدها ، والأموال الطائلة التى سخرتها سلطات الخلفاء المطلقة للإنفاق على أغراضهم الشخصية ، فإن التطورات الاجتماعية والسياسية للإمبراطورية شجعت على نمو الفن الإسلامى وازدهاره . ونعخص قيام عدد من الإمارات المستقلة عن ظهور مجموعة من العواصم المتألقة ، حرصت كل منها جاهدة على منافسة بغداد فى فخامتها ، على حين أن تغير الأسرات الحاكمة وقيام ثورات بالقصور طالما أفضى إلى قيام عواصم إمبراطورية جديدة . ويتجلى ما طبع عليه الحسكام من خلق شرقى فى كراهيتهم للعبانى القديمة الموروثة عن السلف ، وتباطئهم فى إصلاح القديم ، حيث كان التبرم يدفعهم على الدوام

إلى اختيار أما كن جديدة لدورهم . وكان ما اشتهر به المسلمون من ميل إلى القيام بالأعمال الخيرية والمنافع العامة، هو السبب في إقبالهم على تشييد المدارس والعيون والحمامات (والبجارسنانات) المستشفيات وفنادق القوافل ، فضلا عن المؤسسات الدينية البحتة كالمدارس والمساجد والرباطات (التكايا) .

ومنذ البداية ، اقترن اتساع رقعة الإسلام بنشاط عظيم في العمارة . فبعد وفاة النبي بخمسة أعوام شيدت البصرة على الفرات الأدنى وأقيمت السكوفة جنوبي مدينة بابل ، لتكونا مركزين للنفوذ الإسلامي بأرض الجزيرة . ومن النتائج الأولى التي ترتبت على فتح مصر بناء مسجد عمرو الذي سمي باسم القائد المفخر العظيم ، على حين أن ما يسمى « بمسجد عمر » في بيت المقدس ومسجد سيدى عقبة بالقيروان يجمعهما أصل واحد متشابه . أما مسجد دمشق الكبير فقد جددت عمارته ليزيد في أبيه بنى أمية وعظمتهم ، وفوق هذا فإن تركيز الحكم بتلك المدينة صحبه إزدهار الفنون جميعاً . وانبثقت فترة عظيمة العباسيين عمائر بغداد وأمجادها الرائعة ، فشيدت فيها القصور الفاخرة أثناء القرنين الثامن والتاسع ، ولكن غارات التتار حمت معظمها من الوجود . والواقع أن كل العصور التي ازدهر فيها الفن الإسلامي ترتبط على هذا النحو بالأحداث السياسية . إذ إن تألق سلطان بنى مرين بفاس وازدهار نفوذ الفاطميين بالقاهرة ، يتجلىان فيما زينت به عاصمتهما من مونق المباني ؛ كما أن ما حدث فيما بعد من سيطرة الأتراك والسلاجقة في أرمنية ، وتيمور في سمرقند أو المغولى الأعظم في جنوبي الهند ، إنما يسجلها جميعاً تلك العماثر التي خلفوها وراءهم والتي تعتبر دليلاً جلياً على وحدة الفن الإسلامى وقوة حيويته في مراحل اكتماله ونضجه ، وما له من تأثير على الفزاة الآسيويين غير المتحضرين . ثم إن تأسيس الدولة الأموية بأسبانيا كان مؤذناً بمصر لا نظير له في الفخامة والازدهار ، بلغ الذروة في أوائل القرن العاشر . فازدهمت جامعة

قرطبة بالطلاب الوافدين من كل أرجاء الإمبراطورية الإسلامية ، على حين أن المدينة نفسها أثارت إعجاب زوارها القادمين إليها من ألمانيا وفرنسا . وغصت ضفتا نهر الوادى الكبير بالدور المترفة ، وينهض قصر الزهراء دليلاً واضحاً على ميول الأمير الحاكم ، وهو مدينة من مدن الخيال حافلة بغريب المباحج . ولم يبق من عمائر تلك المدة إلا النثر اليسير ، مع أنها عمارة لعلها كانت تنافس بجدارة ما بلغه القصر (الكازار) والحراء من روعة وفخامة ، إن لم تبرزها ، وهما المبنيان اللذان زين بهما أمراء المغرب مدينتى أشبيلية وغرناطة بعد ذلك بأربعة قرون .

عصر الانتقاء فى الفن الإسلامى

وكما أن قيام الأسرات المالكة وسقوطها يحدد الأزمنة التى ازدهر فيها فن العمارة الإسلامى ، فكذلك الشأن فى الأحوال الاجتماعية للإمبراطورية التى أسلفنا إليك خلاصة لها ، فإنها تتجلى فى تطور ذلك الفن من الداخل . ذلك أن حظ العرب فى الجاهلية من فن العمارة كان ضئيلاً ، ومن ثم لم يكن محيىص من أن تنهج العمارة الإسلامية فى العصر الأول على نهج تقاليد البلاد المقهورة . فاستولى الفاتحون فى مصر والشام على الكنائس (الباسيليكات) المسيحية وحولوها إلى مساجد بعد إدخال تغييرات طفيفة عليها ، بل الواقع أنهم حتى عندما كانوا يبنون مباني جديدة ، عمدوا إلى الكنائس القديمة المخربة فسلبوها أعمدتها وتيجانها . وقد أكثر العرب من استخدام الفسيفساء البيزنطية والأخشاب القبطية المحفورة فى تزيين مساجدهم ، ولا يكاد يكون لديهم ظاهرة من البناء أو الزخرفة لا يمكن إرجاعها إلى ما سبقها من تقاليد أو آثار . ومن الأمثلة الشائعة للتأثيرات الإقليمية المآذن بأشكالها المختلفة . وفى بلاد العراق كانت المثانة ذات المنحدر شبه الحلزوى بما يعلوها من قبة

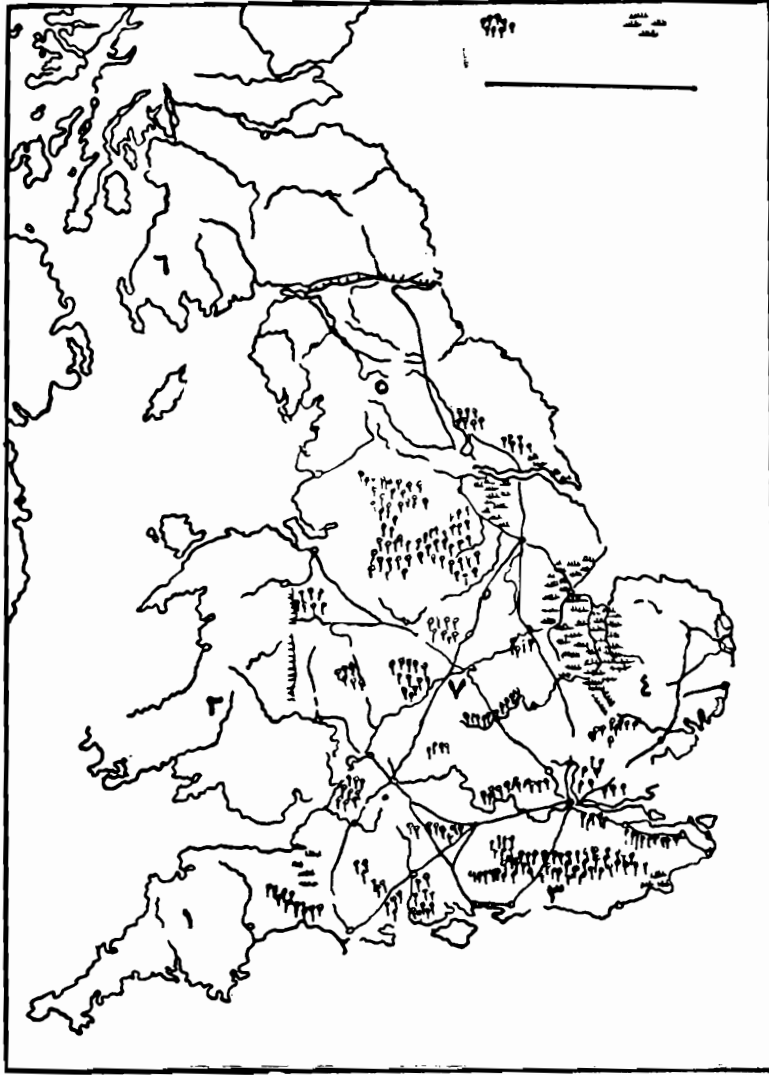
صغيرة تبني على نسق زيجورات^(١) بابل القديمة : أما مآذن دمشق ذات الجوانب الأربعة ، والتي ترتفع في شكل منشور ، فإنها تذكرنا بما كان معروفا في الأزمنة الوثنية والمسيحية من آثار جنائزية ، وهذا الطراز نصادفه أيضاً في أسبانيا والمغرب . وقد حمله إلى تلك الأصقاع النائية ، النفوذ الديني والسياسي لعاصمة الأمويين . ولعل المآذن المصرية ترجع في أصلها إلى فنار (Pharos) الإسكندرية الشهير ، بما فيه من طبقات متداخلة من المناشير ومن مصباح يتوج هامته : ثم إن فارس بتقاليدها القائمة على الشكل الرشيق المتوازن تبنت في مآذنها هيئة الأبراج المرتفعة المستديرة . على حين أن الهند أرض الوفرة ، استخدمت التصميمات الفاخرة في عمارة مآذنها . ثم إن المدرسة العثمانية التي لعلها قد راعتها أعمدة النصر القائمة بالقسطنطينية ، قد رفعت مآذنها كالشموع السامقة المنتهية بالمخاريط المدببة الحادة والمحوطة بالشرفات على ارتفاعات مختلفة ، التي تشرف حتى اليوم على مدينة إستانبول .

ومن هنا يتبين أن الفن الاسلامي ليس ابتكاراً فجائياً لطراز جديد ، بل يرجع أصله شأن سائر مظاهر الحضارة الإسلامية إلى ما كان لمذنيات العصور القديمة من مظاهر عريقة في نضجها . والشيء الجديد هنا هو امتزاج هذه العناصر المستعارة وانصهارها معاً . إنها عناصر أذابتها طاقات العرب وفتوحهم ، فانصهرت معاً وخرجت في النهاية مادة جديدة . وكانت جماعات من المعماريين والبنائين وجيوش من الفعلة والأرقاء ، تنتقل من قطر إلى آخر ، فتحمل معها أساليبها الفنية المتنوعة إلى بيئة أخرى . وطبقت على الحجر طريقة حفر الخشب : على حين أن ما اشتهرت به فارس من المنسوجات الجميلة قد نفذ طرازه في الآجر والرخام ، أما مؤثرات الحفر البارز والفاخر والتصميم ، فحلت محلها

(١) الزيجورات (Ziggurat) كلمة آشورية معناها قمة الجبل أو البرج . وهي في العادة

تدل على برج هرمي الشكل تقريبا [المترجم]

المواد والألوان المتضادة . وهناك فوق كل ذلك عامل آخر ، هو الروح الداخلي للإسلام ، الذى له أثره فى توحيد هذه العناصر المرنة . فإن للشعائر الإسلامية مقتضيات لا مفر من مراعاتها : فالقبلة (المحراب) التى تتجه نحو مكة التى يولى إليها المسلمون وجوههم فى صلواتهم تلقى من المعالجة المعمارية ما يتفق مع أهميتها . أما محن المسجد والبئر فيفرضان صفة خاصة على بنائه . وينسب إلى النبي (ص) حديث ينهى عن تمثيل أشكال الناس والحيوان ، ولهذا الحديث أثر جذرى فى الزخرفة الإسلامية ، غير أن بنى أمية بالشام ، وأمراء فارس تجاهلوا ذلك الحظر ، لأنهم حرصوا على الإبقاء على ما كان بأقلامهم من قبل من فنون التصوير والتشكيل . أما سائر البلاد الإسلامية فإنها لا تستخدم الزخرفة الشكلية ، ومن ثم فقد اتخذ القوم من نبات السنط (Acanthus) ومن خيوط عساليج السكرم ومن موضوعات أخرى فى الفن الكلاسيكى والأسبوى «وسطاً» لفنهم تطور فأصبح ما يعرف باسم فن الزخرفة العربى (Arabesque) . وذلك الفن هو الإطار الذى يتكرر فيه رسم الأزهار والفاكهة ، التى تصحب عادة الأفاريز المؤلفة من كتابات عربية جميلة . ثم تمضى عملية التجريد شوطاً أبعد . إذ أدخل على الأشكال الطبيعية من التعديل والتغيير ما جعلها تختلف عن شكلها الأصلى . ومن ثم أصبح الاتزان والسمتية (التناسق) مظهرين رئيسيين فى التصميمات الفاخرة عند المتأخرين من الفنانين المسلمين . ثم صارت النماذج الهندسية المتشابكة ذات الخطوط المستقيمة أو المنحنية ، وهى تعد فى إطار تنوعها رموزاً للوحدة ، — صارت تلك النماذج تشبع ما للعربى من نزعة إلى التصوف ، كما تعرض علينا — على حد تعبير بعضهم — « حقيقة قوامها منطق خفى وتماسك رياضى تجلوها فى زى خيال وميل » .



(١٢) خريطة إنجلترا في عهد الأنجلو سكسون

- | | | |
|------------------|----------------|--------------|
| ١ - ويلز الغربية | ٢ - ويلز | ٣ - السكسون |
| ٤ - أنجل الشرق | ٥ - نورثمبوريا | ٦ - البكتيون |
| ٧ - آنجل الوسط | | |